الفصل الأول

شيراز وطن صدر الدين:

وهى من مدن إيران الجنوبية واقعة على بعد (٢٩) درجة و(٢٧) دقيقة من العرض الشمالى و(٥٢) درجة و(٤٠) دقيقة من الطول الشرقى من (كرينج لندن) و(٦٠) كيلو مترًا من أتلال[١] استخر الذى يسميه الإفرنج (برس بليس) ويسمى أيضًا (تخت جمشيد) أى (عرش جمشيد) وفيه آثار جميلة وصور بديعة هى آيات خالدة تدل على عظمة الملوك الفارسيين القدماء، وأحرق الإسكندر هذا البناء الجميل العجيب الصنع الشهير، باعتدال هواء وصفاء مائه العذب وجمال رياضه الفتان وبهاء حقوله تجلت فيه الطبيعة بباهر ذلك الجمال، الذى حرك أوتار نفس السعدى الشاعر الفارسى الطائر الصيت، فقال:

خوشا تفرج نوروز خاصه درشيراز كه بركنددل مرد مسافراز وظنش

عزيز مصر چمن شد جمال يوسف گل صب چودر چمن أوردبوى پيرهنش

أى حبذا التفرج فى نيروز[٢] ولا سيما فى شيراز التى تنسب الغريب وطنه والمرج أو الروض أصبح كعزيز مصر، والورد كجمال يوسف حين أتى

---

(١) (المجمع) لعل المؤلف يريد أطلال اصطخر.

(٢) نيروز هو عيد الفرس الكبير، يوم أول الربيع والسنة.

الصبا إليه بشذا قميصه. وهذا وصف جميل بديع لهذا البلد الطيب. وأهله أذكياء المشاعر متلهبو الذكاء، امتازا بصفاء الروح وجمال الصور تتدفق خواطر كثير منهم بالشعر مشهورون بالميل إلى اللهو والترف.

بنى هذه المدينة أولاً شيراز بن تهمورث، ثم جدد بناءها بعد الخراب محمد بن القاسم، ابن عمر الحجاج فى صدر الإسلام، وكانت معسكرًا للمسلمين لما هموا بفتح استخر (اصطخر)، وكانت عاصمة (آل بويه) وغيرهم من الملوك وعاصمة (كريم خان) الزند. وقد أنجبت غير وحد من رجال العلم المشهورين من الفلاسفة الكبار والشعراء العظماء. كالإمام أبى إسحق الشيرازى المتوفى سنة ٤٧٦هـ، والعلامة قطب الدين محمود بن مسعود تلميذ نصر الدين الطوسى الفلكى وصاحب الاختيارات فى (الهيئة) وحل مشكلات المجسطى المتوفى سنة ٧١٠هـ، ومصلح الدين سعدى الشاعر المعارف الشهير المتوفى سنة ٦٩١هـ. وشمس الدين حافظ محمد العارف الشاعر المتوفى سنة ٧٩١هـ أو ٧٩٤ وغيرهم ممن تفتخر بهم (فارس).

فى هذه المدينة الجميلة ولد صدر الدين وأصبح قبسًا منيرًا فى سماء العلم بعد حين، وفيها نمت عواطفه واتقدت فطنته والتهب ذكاؤه، كذلك الترب الخصبة تنبت الزنبقة.

أسرته:

هو صدر الدين محمد بن إبراهيم القوامى الشيرازى الشهير بالأخوند (الأستاذ) المولى صدرًا.

أسرة قوام فى شيراز، أسرة عريقة فى النسب والشرف. والقوام لقب عام لرئيس هذه الأسرة فى كل عصر ولا تزال الرياسة قائمة فيهم إلى هذا الزمن.

ورأس هذه الأسرة هو القـوام الذى كان معـاصرًا لحـافظ شمس الدين الشاعر السابق الذكر، وأثنى عليه فى بعض قصائده بقوله:

دربای اخضر وفلك وكشتى وهلال هستند غرق نعمت وحاجى قوام ما

مـعنى البيت أن نعـمـة قوام عـمت البر والبـحـر، بل الفُلك والفَلك والهلال شملتها نعمته. وهو مبالغة شعرية فى مدحه.

وشك بعض كبار علماء شيـراز فى نسبة صدر الدين إلى هذه الأسرة، وقال على ما رواه الثقات عن أن قوام الذى يـنسب إليه صدر الدين غير قوام المعـاصر للحـافظ شـمس الدين، ولكن اشتـهـرت نسبـته إلى هذه الأسـرة الشريفة.

ولادته:

ولد هذا الحـبر الجليل بعـد النصف من القـرن العاشـر الهجـرى على الرجح، من أب شيرازى اسمه إبراهيم، وكان وزيرًا فى فارس (شيراز). ولم تعرف سنة ولادته فى الكتب التى ورد ذكره فيها، إلا أن الأرجح أنه ولد بعد النصف من القرن العاشر الهجرى، لأن أعمـاله الخطيرة العلمية ووضع تآليفه الكبيرة التى تربو على أربعة وأربعين أو خمسـة وأربعين تأليفًا وتصنيفًا، ومدة اشتغاله بدرس الفلسـفة والحديث والفقه والتصوف، واعـتزاله فى جبال (قم) عدة سنين، تاركًا التأليف والتصنيف، كما سيشير إليه فى كلامه الآتى ذكره. كل ذلك يحتاج إلى زمن أكثر من خمـسين سنة، أى الخمسين سنة بعد القرن العاشر التى وقع فيها موته، إذا قلنا أنه ولد فى فجر القرن الحادى عشر.

ولما لم يولد لأبيه الوزير ولد فى مدة طويلة طلب إلى الله طلبًا حثيثًا أن يرزقه صبيًا فرزقه (صدرًا) بعد أن دعا أدعية طويلة، وفى أيام عديدة وبعد أن تصدق على المحتاجين والمقترين، ولا سيما بعد أن تصدق بثلاثة توامين[1] فوزَّعها على أُناس فقراءَ مارين، ولم يكن له غيرها، ومنذ طفولته لقب الولد (صدرًا) لفضله الكبير واختار له مهذبًا حاذقًا، وما عتم أن ظهرت عليه أمارات الذكاء.

وكان والده ذات يوم وكّله على البيت وعلى رعاية ما فيه، ثم أراد الوقوف على ما أنفقه فى المدة المذكورة، فرأى أن بين النفقات اليومية ثلاثة توامين فى باب الحسنات، فتعجب والده الوزير من هذا الأمر، وقال لابنه ما هذا؟ قال ابنه: يا أبى هذا ثمن ما يكلفك إياه ولدك. وفى صنعة هذا دلالةٌ على جوده، وإن فطرته كانت تهتز للمعروف.

وروده إلى أصبهان:

ولما ذهب من شيراز إلى أصبهان تعرف فى حمام من حمامات المدينة إلى السيد أبى القاسم الفندرسكى[2]، وكان السيد فى عهده من أكابر العلماء فى علوم ما وراء الطبيعة. ولم يكن السيد يعرفه لكن لما سلم عليه، قل له السيد لا شك فى أنك غريب عن البلدة يا ولدى، قال الصدر: نعم. قال له: ومن أى بيت أنت، ومن أى مدينة؟ ولأى سبب قدمتَ إلى أصبهان؟ فقال:

---

(١) (المجمع) التوامين جمع تومان وهو نقد إيرانى ذهبى وقيمته ٨ فرنكات و٨١ سانتميًا.

(٢) سيأتى ذكر السيد فى ضمن تراجم أساتذة صدر الدين.

إنى من (فارس) وقدمت إلى هنا لأتمم دروسى. قال السيد: على أى العلماء تريد أن تقرأ؟ قال: على من تختاره لى. قال السيد: إذا أردت أن توسع عقلك فعليك بالشيخ بهاء الدين، أما إذا أردت أن ينفتق لسانك فعليك بأمير محمد باقر. فقال: إنى لا أعنى بلسانى، فذهب إلى الشيخ بهاء الدين فأخذ يتلقى العلم عنه من فلسفة وكلام، وكان طموحًا إلى أن يعرف أفكار اليونانيين وما دوّنوه فى كتبهم، ولذلك كان يصرف كل دراهمه فى مشترى الكتب الفلسفية، فأجاد فى كل ما سمعه عن أستاذه، حتى إن معلمه قال له ذات يم تلقيت جل علومى وعرَّفه بالمير محمد باقر الداماد، فقال له: اذهب إليه وأتنى منه بكتاب، وكان ذلك وسيلة لتعرفه إليه.

ولم يدر فى خلد الصدر أن وراء الأكمة ما وراءها، فواجه الأستاذ المنطقى من غير أن يخامره ريب، وفى ذلك الوقت كان مير محمد باقر يعلم، فسمع الصدر درسه. ولما عاد التلميذ إلى أستاذه قال له شيخه: ما كان يفعل مير محمد باقر؟ قال: كان يدرس. فقال شيخه: إنى لم أكن محتاجًا إلى طلب كتاب من مير محمد باقر، إنما اتخذت من هذه الوسيلة لكى أعرفك بدروسه، وتحكم بنفسك على مقدرة علمه، فينبغى أن تتلقى علومه فأطاع الصدر، وفى بضع سنوات بلغ الدرجة القصوى من البلاغة وهى الدرجة التى عُرف بها.

آراء الفقهاء فى اعتقاد صدر الدين:

وهذا الفيلسوف كأمثاله من الفلاسفة الأحرار ذوى الأفكار النيرة، لم يسلم من الانتقاد المر والتحقير، وأصبح هدفًا لسهام اللوم والتكفير. وهناك بعض الأقاويل فى شأنه من مقاربى عصره معاصريه.

قال السيد نعمة التستري[1]: لما وردت شيراز لم أتكل إلا على ولد صدر الدين الشيرازى واسمه (ميرزا إبراهيم)، وكان جامعًا للعلوم العقلية والنقلية، فأخذت عنه شطرًا من الحكمة والكلام، وقرأت عليه حاشيته على حاشية شمس الدين الخفرى على شرح التجريد، وكان اعتقاده فى الأوصل خيرًا من اعتقاد أبيه، وكان يتمدّح ويقول اعتقادى فى أصول الدين كاعتقاد العوام وقد أصاب فى هذا التشبيه اهـ.

وقال الشيخ يوسف البحرانى[2]: ولصدر الدين ابن فاضل اسمه (ميرزا إبراهيم) وكان فاضلاً متكلمًا جليلاً نبيلاً عالمًا لأكثر العلوم، ولا سيما فى العقليات والرياضيات. قال بعض أصحابنا بعد الثناء عليه، هو فى الحقيقة مصداق قوله تعالى: ﴿يخرج الحىّ من الميت﴾ قد قرأ على جماعة منهم والده، ولم يسلك مسلكه، وكان على ضد طريقة والده فى التصوف والحكمة.

وقال صاحب روضات الجنات[3] (وكأنه سلك الطريق الوسطى): ويوجد فى غير واحد من مصنفاته (أى مصنفات صدر الدين) كلمات لا

---

(١) عالم شهير له بعض آثار علمية ولد سنة ١٠٥٠هـ وتوفى ١١١٢هـ.

(٢) الشيخ يوسف البحرانى من كبار محدثى الإمامية وفقهائهم، ولد سنة ١١٠٧هـ، وتوفى فى سنة ١١٨٦هـ.

(٣) هو محمد باقر بن أمير زين العابدين من فضلاء المتأخرين، ولد فى ٢٢ صفر سنة ١٢٢٦هـ بقصبة خونسار، وتوفى فى ١٤ جمادى الأولى سنة ١٣١٣هـ بأصبهان، وكتابه روضات الجنات فى تراجم العلماء مشهور، طبع فى إيران فى سنة ١٣٠٧هـ.

تلائم ظاهر الشريعة كأنها مبنية على اصطلاحاته الخاصة، أو محمولة على ما لا يوجب الكفر وفساد اعتقاد له بوجه من الوجوه، وإن أوجب ذلك سوء ظن جماعة من الفقهاء الأعلام به وبكتبه، بل أفتى طائفة منهم بكفره.

فمنهم من ذكر فى وصف شرحه على الأصول (أصول الكافى)[1] شروح الكافى كثيرة جليلة قدرًا، وأول من شرحه بالكفر (صدرًا)، وقال الشيخ يوسف البحرانى السابق الذكر فى شأن تلميذه (المحسن الفيض) الآتى ذكره:

له من المقالات على مذهب الصوفية والفلاسفة ما يكاد يوجب الكفر والعياذ بالله مثل ما يدل فى كلامه على القول بوحدة الوجود، وقد وقفت به على مقالةٍ قبيحة صريحة فى القول بوحدة الوجود، قد جرى فيها على عقائد ابن عربى، وأكثر فيها من النقل عنه، وإن عبر عنه ببعض العارفين وقد أوردنا جملة من كلامه فى تلك المقالة وغيرها فى رسالتنا[2]، فى الرد على مقالته، نعوذ بالله من طغيان الأفهام وزلل الأقدام، وقد تلمذ فى الأصول (أى أصول العقائد) للمولى صدر الدين الشيرازى، ولذا كانت كتبه الأصولية على قواعد الصوفية والفلاسفة.

بل كان فى عصره هدفًا لسهام لوم أكثر عارفيه من أهل الجمود أيضًا،

---

(١) كتاب أصول الكافى أحد الكتب الأربعة المعتمدة فى الحديث عند الإمامية لجامعة الإمام المحدث أبى جعفر محمد بن يعقوب بن إسحق الكلبنى الرازى المتوفى سنة (٣٢٨) أو (٣٢٩).

(٢) اسم هذه الرسالة (النفحات الملكوتية فى الرد على الصوفية).

على أنا نجد قليلاً من معاصريه ومقاربى عصره الذين لم يعشوا عن نور الحق يعظمونه ويبجلونه حق تعظيمه وتبجيله. قال السيد على خان صاحب سلافة العصر فى ضمن ترجمة الملا فرج الله التسترى المعاصر له ما نصه:

قال مؤلف الكتاب (عفى الله عنه) أعيان العجم وأفاضلهم من أهل هذه المئة كثيرو العدد، ومنهم الملا صدر الدين محمد بن إبراهيم الشيرازى الشهير بالملا صدرًا، كان أعلم أهل زمانه بالحكمة متفننًا بسائر الفنون، له تصانيف كثيرة عظيمة الشأن فى الحكمة وغيرها.

وقال صاحب أمل الآمل محمد بن إبراهيم الشيرازى فاضل من فضلاء المعاصرين، ثم نقل نص عبارة صاحب السلافة الآنفة الذكر. وقال الشيخ يوسف البحرانى محمد بن إبراهيم صدر الدين الشيرازى، الشهير بالمولى صدرًا كان حكيمًا فيلسوفًا صوفيًا بحتًا.

وقال صاحب روضات الجنات[1] من المتأخرين:

صدر الدين محمد بن إبراهيم الشيرازى الشهير بالمولى صدر كان فائقًا على سائر من تقدَّمه من الحكماء الباذخين والعلماء الراسخين، إلى زمن نصير الدين الطوسى الفلكى الفيلسوف المتوفى سنة ٦٠٦.

إن من درس هذه الكلمات يعلم أن السير على آثار الآباء والتقليد فى العقائد الدينية، وترك الاعتداء بنور العقل والفلسفة كانت فى ذلك العصر أوصافًا تعدّ فضيلة لصاحبها، وفيها حياة له، كما أن فى الفلسفة موتًا للفيلسوف.

---

(١) (ص ٣٣١ ج٢).

نقل مؤلف كتاب قصص العلماء[1] أن ملا محرابعلى الأصبهانى أحد العرفاء الصوفيين المعاصرين لأبيه الشيخ سيلمان، وجد يومًا الملا محمد كاظم الهزارجريبى عند قبر الحسين (عليه السلام) فى كرباء، أخذ بعد صلاة الصبح يلعن كبار العرفاء الصوفيين واحدًا بعد واحد حتى لعن المولى صدرًا مات مرة.

ثم لعن الملا محرابعلى فسئل الملا محرابعلى وهو لا يعرف الملا محرابعلى عن سبب لعنه له، قال إنه يعتقد بوحدة واجب الوجود، فقال له فالعنه فإنه حقيق بلعنك بهذه العقيدة، ولم يكن يميز بين الاعتقاد بوحدة الوجد ووحدة واجب الموجود.

وفاته:

اتفق الشيخ يوسف البحرانى وصاحب أمل الآمل[2] وروضات الجنات على أن توفى فى ضمن العشر الخامس من المائدة الحادية عشرة.

وخالفهم محمد حسن خان (صنيع الدولة) مؤلف كتاب (منتظم ناصرى[3]) الذى وضعه فى وقائع السنين فى الشرق والغرب، وسمى الكتاب باسم الشاه ناصر الدين القاجارى، قال فى صفحة (١٩٦ ج٢) من كتابه أن

---

(١) قصص العلماء كتاب فى تراجم العلماء لمؤلفه محمد بن سليمان التنكابنى الموجود فى عصر ناصر الدين شاه القاجار.

(٢) صاحب أمل الأمل هو محمد بن الحسن الشهير بالحر العاملى، ولد سنة ١٠٣٣، ولم تثبت عندى سنة وفاته.

(٣) صنيع الدولة من فضلاء عصر ناصر الدين شاه وأدبائه المشهورين وأمرائه الأجلّة.

صدر الدين توفى فى سنة (١٠٥٩هـ) (١٦٤٩م) وحدثت وفاته فى البصرة حين توجهه إلى مكة.

كلماته وشكواه عن أهل عصره:

يظهر من بعض كلماته أنه سئم من جهلة أهل عصره يقول فى ديباجة كتابه (الشواهد الربوبية) بعد الحمد وأصلى على نبيه وآله المطهرين من ظلمات الخواطر المضلة المحفوظين فى سماء قدسهم وعصمتهم عن طعن أوهام الجهلة، واستعيذ به من جنود الشياطين، ثم قال: (اللهم اجعل قبور هذه الأسرار صدور الأحرار)، وقال فى فاتحة كتابه (الأسفار) بعد بيان عزمه على تصنيفه.

ولكن العوائق كانت تمنع عن المراد وعوادى الأيام تضرب دون بلوغ الغرض بالأسداد، فأعقدتنى الأيام عن القيام، وحجبنى الدهر عن الاتصال إلى المرام، لما رأيت من معاداة الدهر بتربية الجهلة الأراذل وشعشعة نيران الجهالة والضلال، ورثاثة الحال وركاكة الرجال، وقد ابتلينا بجماعة غاربى الفهم، تعشو عيونهم عن أنوار الحكمة وأسرارها، وتكل بصائرهم كأبصار الخفافيش عن أضواء المعرفة وآثارها، يرون التعمق فى الأمور الربانية والتدبر فى الآيات السجانية بدعة ومخالفة أوضاع جماهير الخلق من الرعاع ضلالة وخدعة، إلى أن قال: فأصبح الجهل باهر الريات، فأعدموا العلم وفضله، واسترذلوا العرفان وأهله، وانصرفوا عن الحكمة زاهدين ومنعوها معاندين، ينفرون الطباع عن الحكماء، ويطرحون العلماء العرفاء الأصياء، وكل من كان فى بحر الجهل والحمق أولج، وعن صفاء المعقول والمنقول أخرج، كان إلى زوج القبول والإقبال أوصل، وعن أرباب الزمان أعلم وأفضل:

كم عالم[1] لم يلج بالقرع باب منى وجاهل قبل قرع الباب قد ولجا

وكيف ورؤساؤهم قوم عزل من سلاح الفضل والسداد، عارية مناكبهم عن لباس العقل والرشاد.

يشير هذا الكلام إلى أن صدر الدين لم يكن يستطيع من التصريح بفلسفته كما يأتى النص عليه فى كلامه فى مبحث علم البارى تعالى، حيث يقول فى رأيه فى علمه تعالى أنه لا يرى فى التصريح به مصلحة، وتنبه على ذلك من درس حياة صدر الدين من الإفرنج. ففى كتاب (الكنت دوى كوبينو) ومعلمة الإسلام الإنجليزية أن صدر الدين أخفى مذهبه من باب التقية (الكتمان)، خوفًا من اضطهاد المجتهدين له، وغشاه قصدًا بألفاظ معماة ومقالته بث شكوى من أهل الجمود ومتفقهة عصره، الذين دأبهم فى كل عصر ومصر محاربة أحرار الأفكار بسلاح الدين، وإن كانوا لا يعرفون من الدين إلا قشره، وهم أبعد من لبه كبعد السماء والأرض.

أهل الجمود والعوام فى نظره:

نظر صدر الدين إلى أهل الجمود والعوام بالاحتقار. يقول فى أول كتابه (الأسفار) بعد وصف فضل الفلسفة، وأنها طريق معرفة الحق الوحيد، وليعلم أن معرفة الله تعالى وعلم المعاد وعلم طريق الآخرة، ليس المراد بها الاعتقاد الذى تلقاه العامى أو الفقيه وراثةً وتلقفًا، فإن المشغوف بالتقليد والجمود على الصورة لم ينفتح له طريق الحقائق كما ينفتح لكرام من الإلهيين.

---

(١) وفى نسخة عاقل.

ويقول إنى أستغـفر الله كثيراً مما ضيعت شطـراً من عمرى فى تتبع آراء المتفلسفة والمجادلين من أهل الكلام.

حتى تبين لى بنور الإيمان وتأييـدات المنان أن قياسهم عـقيم وصراطهم غير مستقيم.

تأثير معارضة أهل الجمود للفلسفة فى نفسه:

لما لم يجد إقـبالاً عليه وعلى الفلسفـة من أهل عصره، كمـا يريد سئم وخمـد خاطره الفيـاض، وترك التدريس والتأليف مـدة من الزمن، يقول فى كتابه الكبـير ضربت عن أبناء الزمان صـفحًا وطويت عنهم كشحًـا، فألجأنى خمود الفطنـة وجمود الطبيعـة لمعاداة الزمان، وعدم مـساعدة الدوران إلى أن انزويت فى بعض نواحـى الديار (لعله يشـير إلى هـجرته إلى بعـض جبـال قم)[1]، واستترت بالخـمول والانكسار، منقطع الآمال منكسر البـال، متوفراً على فرض أؤديه وتفريط فى جنب الله أسعى فى تلافـيه لا على درس ألقيه، أو تأليف أتصـرف فـيه إذ التـصـرف فى العلوم والصناعـات وإنارة المبـاحث والمعضلات ودفع المعـضلات وتبيين المقاصد ورفع المـشكلات، مما يحتاج إلى تصفية الفكر وتهذيب الخبال، عما يوجب الملال والاختلال واستقامة الأوضاع والأحوال مع فراغ البال.

---

(١) قم مدينة فى ١٢٠ كيلومتراً من جنوب طهران الغربى، وكان بدء تمصيرها فى أيام حجاج بن يوسف سنة ٨٣ تقدسها الإيرانيون، فإن فيها دفنت أخت الإمام على بن موسى الرضـا عليهم السـلام، وهى الآن تعد من المدارس الدينيـة الكبرى ويدرس فيها الفقه والأصول والأدب.

ومن أين يحصل للإنسان مع هذه المكاره التى يسمع ويرى من أهل الزمان، ويشاهد مما يكب عليه الناس فى هذا الأوان من قلة الإنصاف وكثرة الاعتساف وخفض الأعالى الأفاضل، ورفع الأدانى والأراذل، وظهور الجاهل الشرير والعاصى النير، على صورة التحرير، وهيئة الحبر الخبير إلى غير ذلك من القبائح والمفاسد الملازمة الفاشية اللازمة، والمتعدية بحال المخاطبة فى المقال وتقرير الجواب عن السؤال، فضلاً عن حل المعضلات وتبيين المشكلات، ثم تمثل برباعى من رباعيات (الفرس) وهو:

از سخن پردُ رمكن همچون صدف هر گوشرا

قفل كوهر ساز ياقوت زمرّد بوشرا

درجواب هر سؤالى حاجت كفتار نيست

چشم بينا عذر مى خواهد لب خاموشرا

(١) معناه: لا تجعل كثيراً كل أذن غير واعية مشحونة كالأصداف بدرر المعانى.

(٢) واقفل شفتيك الياقوتتين.

(٣) لا حاجة للمقال فى جواب كل سؤال.

(٤) فإن العين البصيرة تعذر الشفة السكنة للإنسان.

ثم اقتبس كلام أمير المؤمنين على عليه السلام، وقال: اقتفيت أثر على عليه السلام، مُطلّق الدنيا مؤثراً الآخرة على الأولى، فأمسكت عنانى عن الاشتغال بالناس ومخالطتهم، وأيست من مرافقتهم ومؤانستهم، وسهلت على معاداة الدوران ومعاندة أبناء الزمان، وخلصت عن إنكارهم وإقرارهم

وتساوى عندى إعزازهم وإضرارهم، فتوجهت توجهًا غريبزيًا نحو مسبب الأسباب، وتضرعت تضرعًا جبليًا إلى مسهل الأمور الصعاب، فلما بقيت على هذه الحال من الاستتار والانزواء والخمول والاعتزال زمانًا مديدًا وأمدًا بعيدًا، واشتعلت نفسى بطول المجاهدات اشتعالاً نورانيًا، والتهب قلبى التهابًا قويًا، ففاضت عليها لكثرة الرياضات أنوار الملكوت، وحلّت بها حنايا الجبروت ولحقتها الأضواء الأحدية، وتداركتها الألطاف الإلهية فاطلعت على أسرار لم أكن أطلع عليها إلى الآن، وانكشف لى رموز لم تكن منكشفة هذه الانكشاف من البرهان، بل كل ما علمته من قبل بالبرهان عاينته مع زوائد بالشهود والعيان انتهى».

وأنت تعلم أيها القارئ أن هذه الكلمات التى ملؤها لشكوى من الجهل والجاهل وعصر الجهل، لا تصدر إلا عن نفس رجل بلغ فى العلم وتذكية النفس مرتبة رفيعة، وحاول أن يستضىء الناس بنبراس علمه، ويسلكوا سبيل الهدى الأمثل ويتبعوا نور الشمس العقل الأجمل.

ثم وجد الأقدار تجرى على خلاف ما يرومه، فثغر الجاهل وتكرمه وتذل العالم وتلجمه، ورأى من اتبع نور العقل أصبح هدفًا لسهام الجهل. فسئم من الحياة وقطع عنها كل الصلات ونظر إلى العالم نظرم المتحير وطلب النجاة من الله العزيز القدير، وكانت حاله فى تركه وطنه وانزوائه فى جبال ثم واستظلاله تحت ظلال السكون والوحدة، للتفكر فى ملكوت السموات والأرض والتأمل فى الأسرار الإلهية تشبه حال الإمام (الغزالى) فى تركه بغداد وتأملاته فى القدس والشام، فكلاهما جعلا تهذيب النفس بالرياضة والمجاهدة، وتحليتها بالفضائل وتخليتها عن الرذائل سبيلهما الموصل إلى الله

الجليل والعارج بهمـا من مرتبة البرهان - إلى عالم الشهـود والعيان ذاك عاد بعد سنين إلى بغداد فسلك سبيـل الرشاد، وهذا نزل من جبال قم وفجر عين خاطره الفياض فصنف وألف وأجاد.

حالة إيران العلمية فى العصر الصفوى:

يحسن بنا أن نـذكر كلمة فى حـالة إيران العلميـة فى العصر الصـفوى لتتسع بها إحاطة القارئ الكريم بنواحى البحث.

إن من جـال ديار الفرس ونظر إلى مـدارسهـا المبنيـة فى عصـر الملوك الصفـويين، يتمثل أمامـه سعى هؤلاء الملوك العظماء وأمـرائهم ورجالهم فى نشر الـعلوم، ولا سيمـا علوم الدين فإنـه يجد فى أصفـهان كـرسى المملكة الصفـوية، وسائر ديار إيران معاهد علمـية ومدارس فخـمة بنيت على الطراز القديم تلألأ قبابها الزرقاء بين أشجار وأزهار وبستان وريحان.

وحجرات الطلاب مطلة عليـها وجدرانها مزينة بالفسيـفساء على أجمل طرز تسحر العيون كثيراً ما نقشت فيها آيات قرآنية ونصوص دينية.

فصـورة قطعة من مـدرسة الخان فـى شيراز التى تراها فـى ضمن هذه الرسالة تمثل لديك جمال البناء فى القرنين العاشـر والحادى عشر وهندسته فى إيران، وكانت عناية هؤلاء الملوك والأمراء والذين أتبعوهم بإحسان لنشر العلم سببًـا لوقف أملاك كثيرة من أراضى ومـزارع وقرى لصرفها فـى سبيل العلم ونشره وترقية طلبته.

فبقـية تلك الأملاك الموقـوفة فى العصر الصـفوى الآن فى إيران، يبلغ ثمنها مـلايين من الجنيهات، وكان هؤلاء الملوك ورجـالهم بأنفسهم يتـفقدون

حال طلبة العلم ويكـرمونهم غاية الإكرام. وفى كتـاب المذاهب والفلسفة فى آسيا الوسطى أن أم الشاه عباس الصفوى الكبـير على جلالتها مع جماعة من الأميـرات الشريفـات كن يأتين المدارس فى كل شهـر مرة ويسـألن عن حال الطلاب، ويجـمعن ثيـابهن ليغـسلن أوساخـها ويعطينهم ثيـابًا جديدة لـئلا يشتـغلون بغير الدرس، وهذا الصنع الجـميل يدل على كبـير اهتمامـهم بنشر العلم وترقية شؤون الدين فى هذه المعاهد العلمية، كان الطالب يتلقى دروسه من الصرف والنحو والمنطق والمعانى والبيان وسائر فروع العلوم العربية والأدبية والفـقه وأصـوله، والحديث والـكلام والعلوم الرياضيـة بجـميع فـروعهـا، والأخلاق وقليل من الفلسفـة الإغريقية، والحكمة الفـهلوية على خفاء؛ لأن الفلسفة كانت تعد مخالفة لمبادئ الدين.

تلقيه علومه وفلسفته:

ولما أتم صدر الدين دروسه الأولية فى شيـراز رحل إلى أصبهان، حيث كانت مجـمع رجال العلم والحكمة، ومقـتبس نور العرفان فى إيران، وفـيها كبار العلماء والحكماء والأساتذة والمدرسـين أمثال: بهاء الدين العاملى، والمير محمد باقر الداماد، والمير الفندرسكـى الآتى ذكرهم، وكان الطلبة يقصدونها من الأقطار الفارسية القريبة والنائية لتلقى العلوم العالية فيها.

أساتذته:

لا شك أن نفس مـــثل صـدر الديـن الظمـأى إلى رشف كـس العلم والحكمة، لا تقنع بأساتذة قليلين، فظنى قوى أنه أدرك كثيرًا من شيوخ العلم والحكمـة والأدب فى عصـره، إلا أن أساتذته المـشهـورين هم الشيخ الإمـام الجليل بهاء الدين العـاملى، والفيلسـوف الإلهى المير محمـد الباقر الحـسينى

الشهير بالداماد[1]، وكانا بأصبهان والأول هو العالم الطائر الصيت بهاء الدين محمد بن حسين بن عبد الصمد العاملى الحارثى الهمدانى، ولد فى بعلبك عند غروب الشمس يوم الأربعاء لثلاث بقين من ذى الحجة الحرام سنة ٩٥٣ ثلاث وخمسين وتسعمائة، وصاحب الشاه عباس الصفوى توفى فى ١٢ شوال سنة ١٠٣٠ بأصبهان ونقل قبل دفنه إلى طوس (خراسان)، ودفن فى جوار قب الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام، وقبره مشهور فيه. وأشهر كتبه: تشريح الأفلاك، ورسالة نسبة ارتفاع أعظم الجبال إلى قطر الأرض، وخلاصة الحساب، ورسالة فى بيان أن أنوار الكواكب مستفادة من الشمس، ورسالة فى حل أشكال القم وعطارد وتفسيره المسمى بالعروة الوثقى.

فوض إليه منصب شيخ الإسلام من الملك الصفوى، وكان هذا المنصب ذا أهمية كبرى فى ذلك العصر، والثانى هو محمد الباقر بن محمد الحسينى فيلسوف إلهى جليل، وفقيه نبيل كان شاعرًا يجيد الشعر بالفارسية والعربية، وخطيبًا مصقعًا خطب خطبة الملك فى جامع أصبهان يوم جلس فيه الشاه صفى الصفوى فى عرش الملك وصاحب الشاه عباس الكبير. توفى سنة ١٠٤٠هـ على رأى صاحب منتظم ناصرى وسنة ١٠٤٠ على ما ذكره صاحب أمل الآمل. وأشهر كتبه: القبسات، والصراط المستقيم، والحبل المتين، وشارع النجاة فى الفقه، وعيون المسائل لم يتم، كتاب نبراس الضياء،

---

(١) داماد بالفارسية الصهر اشتهر به لأن أباه محمد كان صهر الشيخ على بن عبد العال الكركى الشهير بالمحقق الثانى بين علماء الشيعة، وكان مشهورًا بالداماد، واشتهر به ابنه أيضًا.

وخلسة الملوك، والرواشح السماوية وهو فى علم الحديث والدراية، ونسخة من هذا الكتاب كانت موجودة عند صاحب روضات الجنات بخط صدر الدين، وكتاب السبع الشداد، والضوابط، والإيماضات والتشريفات، وشرح الاستبصار، وسدرة المنتهى فى تفسير القرآن.

وله رسالة فى أن المنتسب بالأم إلى هاشم - من السادات الكرام على ما اختاره العلامة جمال الدين القاسمى الدمشقى، وله أيضًا حواشٍ على الكفاى، وكتاب من لا يحضره الفقيه، وهما من أهم كتب الحديث والمير الفندرسكى الذى أرشده إليهما هو أبو القاسم الفندرسكى وفندرسك من نواحى استراباد إيران[1] حكيم إلهى صوفى زاهد شاعر كان بارعًا فى العلوم الرياضية والفلسفة، وارتاض فى الهند مدة مديدة، وبعد أن عاد من الهند إلى العراق دعا أهل العلم إلى مسلكه، توفى بين سنة ١٠٣٠هـ وسنة ١٠٤٠هـ.

تلامذته المشهورون:

ومن أشهر تلامذته محمد بن مرتضى المدعو بمحسن الفيض وهو ختن صدر الدين. كان عالمًا محدثًا صلبًا كثير الطعن على المجتهدين، وقد سبق كلام صاحب (لؤلؤة البحرين) الشيخ يوسف البحرانى فى مسلكه التصوفى تلمذ فى الحديث على السيد ماجد البحرانى فى مدينة (شيراز) وفى أوصل العقائد على الفيلسوف صدر الدين محمد بن إبراهيم. وله آثار علمية أفرد لها فهرستًا منها: كتاب الصافى فى تفسير القرآن الكريم (طبع فى إيران).

وأكثر كتبه أخلاقية على سبيل العرفان فى السير والسلوك، وهى تشبه

(١) استراباد بلدة صغيرة فى نواحى قبائل ترك خراسان.

كتب الغزالى ومنها: كتاب المحجة البيضاء فى إحياء الأحياء، وكتاب محجة الحقائق فى أسرار الدين، وكتاب تشريح العالم فى بيان العالم وأجسامه وأرواحه وكيفيته، وحركات الأفلاك والعناصر وأنواع البسائط والمركبات وكتاب حدوث العالم.

راه صواب (أى طريق الصواب) بالفارسية فى سبب اختلاف أهل الإسلام فى المذاهب، وكتاب أبطال الجواهر الأفراد، فهرست العلوم شرح فيه أنواع العلوم وأصنافها. قال السيد الجزائرى[1]: تصانيف أستاذى الفيض ترب على مائتى كتاب ورسالة، ومنهم المولى عبد الرزاق بن على بن حسين اللاهجى الجيلانى، ثم القمى كان حكيمًا متشرعًا ومتكلمًا محققًا، ومنشئًا بليغًا ومنطقيًا وشاعرًا جليلاً له مصنفات كثيرة فى الحكمة، والكلام منها تابه المشهور بگوهر مراد.

كتاب شرح تجريد نصير الدين الطوسى الفيلسوف، وهذا الكتاب فى الأمور العامة. كتاب الشوارق فى الحكمة: شرح الهياكل فى حكمة الإشراق الكلمات الطيبة فى المحاكمة بين المير الداماد وتلميذه صدر الدين فى أصالة المهية والوجود. رسالة حدوث العالم. حاشيته على حاشية الخفرى على الهيآت. شرح التجريد. حاشيته على شرح الإشارات لنصير الدين الطوسى الفلكى.

وكان قد درس على صدر الدين وكان مدرسًا بمدرسة قم إلى أن توفى بها بعد النصف من القرن الحادى عشر.

---

(١) هو السيد نعمة الله الذى سبق ذكره.

وردت كلمة موجزة فى (معلمة الإسلام الإنجليزية) عن صدر الدين بقلم العالم المستشرق (كليمان هوار). وعد من تلاميذه القاضى سعيد القم، ولكن ترجمته تفيد أنه تلمذ على محسن الفيض تلميذ صدر الدين، وهو القاضى سعيد محمد بن محمد مفيد حكيم أديب عارف تولى القضاء فى (قم) وتلمذ على محسن الفيض الذى سبق ذكره. وله كتاب كبير شرح به توحيد الصدوق[1] فى عدة أجزاء، ومنه نسخة فى خزانة كتبنا وهو شرح نفيس يشتمل على أنفس مباحث اللهوت والعرفان، وكان معظمًا عند الشاه عباس الصفوى الثانى وأمرائه.

قرأ الحكميات على المولى عبد الرزاق اللاهيجى بقم، وتوفى هناك ولا يعلم على التحقيق سنة وفاته، والمظنون أن وفاته كانت فى أواخر القرن الحادى عشر أو أوائل الثانى عشر.

تأليفاته الفلسفية:

(١) كتابه الكبير الأسفار وهو مرآة فلسفته الجلية صنفه فى جبال (قم) بعد تأملاته العرفانية الفلسفية فى فاتحته يقول بعد الشكوى من العصر وأهله، فى زمن انزوائه فى بعض الديار، كما أسلفنا، ثم اهتز الخامد من نشاطى وتموج الجامد من انبساطى، إلى أن قال: فصنت كتابًا إلهيًا للسالكين المشتغلين بتحصيل المال، وأبرزت حكمة ربانية للطالبين لأسرار حضرة ذى الجلال والجمال وترتيبه هكذا:

---

(١) وعد صاحب كتاب قصص العلماء من تلاميذ الشيخ حسين.

(السفر الأول) وهو الذى من الخلق إلى الحق فى النظر إلى طبيعة الوجود وعوارضه.

و(الثانى) السفر بالحق فى الحق.

و(الثالث) السفر من الحق إلى الخلق بالحق.

و(الرابع) السفر بالحق فى الخلق.

ثم قال فرتبت كتابى هذا طبق حركاتهم فى الأنوار والآثار على أربعة أسفار، وسميته بالحكمة المتعالية فى الأسفار العقلية، ولا يخفى ما فى هذا القول من النزعة الصوفية، مع أن الكتاب يحتوى على أهم المباحث الفلسفية الإلهية، بل جميعها طبع فى إيران قبل عدة سنين.

وهم (الكونت دوغوبينو) وزعم أن هذا الكتاب الكبير أربع رحلات كتبها صدر الدين فى أسفاره، فإنه لما ذكر عدد تآليفه وقال فضلاً عن ذلك وضع أربع رحلات ووهمه نشأ من اسم الكتاب مع أنه أهم تآليفه ومرآة أفكارة الفلسفية، ولم يتدبر فى موضع الكتاب.

(٢) كتاب الواردات القلبية.

(٣) كتاب المسائل القدسية والقواعد الملكوتية.

(٤) كتاب الحكمة العرشية، شرحها الشيخ أحمد زين الدين الأحسائى مؤسس مذهب الشيخية الإمامية (طبع فى إيران).

(٥) كتاب المشاعر، شرحها الشيخ أحمد زين الدين الأحسائى مؤسس مذهب الشيخية الإمامية (طبع فى إيران).

(٦) كتاب الشواهد الربوبية، وهو من أفضل كتبه الفلسفية وأعلاها (طبع فى إيران).

(٧) كتاب المبدأ والمعاد، وحاول أن يوفق فيه بين الدين والفلسفة.

(٨) كتاب فى حدوث العالم، وفيه أهم آرائه الفلسفية.

(٩) كتاب شرح الهداية.

(١٠) حاشية على إلهيات الشفاء للرئيس ابن سينا الفيلسوف.

(١١) حشيته على شرح حكمة الإشراق للسهروردى.

(١٢) أجوبة على مسائل عويصة.

(١٣) أجوبة على مسائل سألها المحقق الطوسى الفيلسوف عن بعض معاصريه ولم يأت المعاصر بجوابها.

(١٤) رسالة فى حل الإشكالات الفلكية، ذكر اسمها فى بحث غايات الأفعال الاختيارية فى الأسفار.

(١٥) رسالة فى تحقيق اتصاف الماهية بالوجود (طبع فى إيران).

(١٦) رسالة إكسير العارفين فى معرفة طريق الحق واليقين.

(١٧) رسالة فى إثبات الشوق للهيولى (المادة) أو ذراتها.

(١٨) رسالة فى اتحاد العاقل والمعقول.

(١٩) رسالة فى خلق الأعمال.

(٢٠) رسالة (فى الحركة الجوهرية) وهى نظرية تفرد بها صدر الدين.

(٢١) رسالة فى سريان الوجود وهى من أنفس تآليفه.

(٢٢) رسالة فى الحشر.

(٢٣) رسالة فى التطور والتصديق.

(٢٤) رسالة فى الشخص.

(٢٥) رسالة فى القضاء والقدر.

(٢٦) رسالة اسمها الألواح العمادية.

تآليفه الدينية:

وله تآليف دينية من تفسير وحديث، ولكنه انقاد فيها إلى الفلسفة أكثر من انقياده إلى الدين منها مجموعة تفسير لبعض سور القرآن الكريم وآية (طبع فى طهران) تحتوى على ١٢ رسالة:

(١) تفسير سورة البقرة.

(٢) تفسير آية الكرسى.

(٣) تفسير آية النور، هذه الرسالة موجود الآن بخط صدر الدين فى شيراز عند السيد عبد الحسين ذى الرياستين العارف الشهير.

(٤) تفسير سورة آلم سجدة.

(٥) تفسير سورة يس.

(٦) تفسير سورة الواقعة، كان موجودًا بخط صدر الدين عند صاحب روضات الجنات.

(٧) تفسير سورة الحديد.

(٨) تفسير سورة الجمعة.

(٩) تفسير سورة الطارق.

(١٠) تفسير سورة سبح اسم ربك الأعلى.

(١١) تفسير سورة إذا زلزلت.

(١٢) تفسير آية (وترى الجبال تحسبها جامدة) طبعت هذه الرسائل بخط سقيم فى إيران.

(١٣) رسالة أسرار الآيات.

(١٤) كسر أصنام الجاهلية فى كفر جماعة الصوفية، وليعلم أن التصوف فى كل عصره، كاان يطلق على جماعة من الدراويش الأباحيين، ولكن العقليين والأخلاقيين من المتصوفة، كان يطلق عليهم فى ذلك العصر بالعرفاء.

(١٥) كتاب مفتيح الغيب (طبع فى إيران)

(١٦) كتاب شرح أصول الكافى تصنيف أبى جعفر محمد بن يعقوب ابن إسحق الكليتى الرازى المحدث الأمامى الشهير المتوفى سنة (٣٢٨) أو (٣٢٩هـ)، قال صاحب روضات الجنات أنه أرفع شرح كتب على أحاديث أهل البيت، من الأئمة عليهم السلام، وقد سلف منا قول البعض أن أول من شرحه بالكفر صدراً كما فرق بين النظرين.

(١٧) حواشيه على كتاب الرواشح لأستاذه الداماد وكانت بخطه عند صاحب الروضات.